اسم المادة الدراسية : الأدب الاندلسي

اسم المادة باللغة الانكليزية : Andalusia literature

(المحاضرة السابعة)

عنوان المحاضرة : تتمة شعراء الاندلس .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة .

محاضرة : ٧

ابن عبد ربه الاندلسي:

هو احمد بن عبد ربّه المكنى (أبو عمر) ولد في قرطبة عاصمة الاندلس سنة(٢٤٦هـ) وتلقى العلوم على يد شيوخ عصره فدرس الفقه والتاريخ ثم عني بممارسة النظم والكتابة وأدام النظر في كتب المشارقة ويعتقد بعض الباحثين ان ابن عبد ربه رحل الى المشرق وانه افاد من ذلك في توسيع دراسته وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق كما يذكر ذلك الدكتور احمد هيكل في كتابه (الادب الاندلسي) ويبدو من اخبار ابن عبد ربه وأشعاره في مرحلة فتوتة وشبابه انه ميال الى اللهو ولكنة لم يكن ماجنا،اتصل ابن عبد ربه بأمراء بني امية في اواخر القرن الثالث ومدحهم ونال عطاءهم كما انه ادرك حكم عبد الرحمن الناصر وفي هذه المرحلة تحول الحكم من نظام الامارة الى نظام الخلافة وكان ابن عبد ربه اديبا،بارعا،متعدد الجوانب،فهو شاعر، وكاتب، ومؤلف بارز،ويعد كتابه (العقد الفريد) معرضا لأدبه وذوقه فقد انطوى على مقاطع نثرية أسماها (الفرش) وكان يدلي بالإشعار التي يذكرها للآخرين كما انه نظم كتابه على أبواب وكل باب من هذه الابواب عرف باسم (جوهرة من الجواهر على عادة الاندلسيين في حب

الزينة وإيثار الترف وقد جنح الشاعر الى العزلة والعبادة بعد أن شاخ على غرار ما جنح اليه من قبل يحيى الغزال في الاندلس وأبو نؤاس في المشرق توفي أبن عبد ربه عام (٣٢٨ هـ) ويعد في نظر مؤرخي الادب أول شاعر كبير في الاندلس وقد اتسم اسلوبه الشعري بالعذوبة والرقة وقرب المأخذ . ولعل مفتاح شخصية ابن عبد ربه في شعره أنه لايوغل في المجاز ولايغوص على المعنى وهو ينظم برشاقة وخفة ومن هنا كانت عبارته ترق في الاسماع من دون أن يكون وراءها معنى عميق ومن هذا القبيل قوله

يالؤلؤا يسبي العقول أنيقا
ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درأ يعود من الحياء عقيقـــــا
وإذا نظرت الى محاسن وجهه
أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقـة
ما بـال قلبك لا يكـــــون رقيقا

ففي هذه الابيات يذكر الشاعر الفاظ الزينة التي تنم عن ميل الأندلسيين الى التجمل بالزينة والحلي ولعل ما يلاحظ فضلا عن ذلك تلك الفتاة الاندلسية المولدة ببشرتها البيضاء التي شبهت باللؤلؤ ولم تلبث من الحياء أن تغدو متوردة كالعقيق أما أثر الصنعة فيبدو واضحاً من خلال حرص الشاعر على التصريع حتى في المقطعات وذلك بيّن في قافية المطلع والمجانسة بينهما وكذلك المطابقة بين الدر والعقيق ثم إيراده لهذا الطباق الذي يقوم على التضاد بين رقة خصر الحبيب وعدم رقة قلبه .

وهنالك شاهد أخر تتجلى فيه السهولة واليسر في اللفظ والقافية كما في قوله :

أعطيته ما سألا حكمته لو عـــدلا
وهبته روحي فما ادري به ما فــعلا

قلبي به في شغل لاملّ ذاك الشُغلا

وهذه الظاهرة التي نلمحها في شعر ابن عبد ربه لم تكن سائدة في الشعر الاندلسي على هذا النحو قبل عصر ابن ربه ولعلنا واجهناها أول الامر في شعر يحيى الغزال على حين كانت سمات الغرابة في اللفظ والجزالة في الاشعار السابقة من قصائد ابن عبد ربه الغزلية لاميته التي عارض فيها قصيدة صريح الغواني(مسلم ابن الوليد) التي يقول فيها :-

أديرا علي الراح لا تشربا قبـــلي ولاتطلبا من عند قاتلتي ذخـــــلي
فياحزني أني أموت صـــــبابة ولكن على من لايحل له قتـــــلي
فديت التي صدت وقالت لتربها "دعيه الثريا منه اقرب من وصلي "

فقال ابن عبد ربه معارضاً القصيدة التي بتمامها :-

اتقتلني ظلماً وتجحدني فضلي
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
أطلاب ذحلي ليس بي غيرشادن
بعينية سحر فاطلبوا عنده ذحـــــلي
أغار على قلبي فلما أتيته
أطالبه فيه أغار على عـــــــقلي
بنفسي التي ضنت بردّ سلامها
ولو سألت قتلي وهبت لــها قتلي
اذا جئتها صدت حياء بوجها
فتهجرني هجراً ألذ من الوصـــل
اقول لقلبي كلما ضامه الأسى
اذا ما اتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى

وأمرك لا أمري وفعلك لا فعـــلي

وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً

فجردتـه ثم أتكات على النصـــل

فان كنت مقتولاً على غير ريبة

فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

على هذا النحو يمضي الشاعر في تصوير العلاقة بينه وبين من يحب وكأنها حرب بينه وبين كائن شديد اليأس ولهذا اضحى قتيلاً ولم يكن قاتله غير ذلك الحبيب وثمة حبيب قاتل ومحب صريع ولا بد ان يتبع ذلك اخذ الثأر وما ذلك القاتل سوى شادن جميل العينين ومن هنا يبدو لنا جليا كيف عمد الشاعر الى استمداد صوره ومعانيه الجزئية من حياة العرب ويجنح الشاعر في الابيات الاربعة الاخيرة الى مناجاة قلبه على هذا النحو الشجي وكأنه مجرد منه كائن ثان انساق وراء نزوته فحق عليه ان يعاني مرارة الحب ومثل هذا الاسلوب ينطوي على جدلية تجعل التعبير متسما بصراع وحركة تتجاذب مستوى العاطفة التي يبثها الشاعر في نصه وقد يعمد احيانا على ابراز التضاد من خلال الاعتماد على الطباق في اسلوبه اذ يذكر الظلم والعدل والهجر والوصل وعلى العموم يكشف النص السمات التقليدية وعناصر المحافظة ولم يكن هذا النزوع عارضا وإنما قصد اليه قصدا لان النص كان عبارة عن معارضة لنص مسلم بن الوليد ونزعة المعارضة هذه لا تتجلى في هذه القصيدة فحسب بل تكاد ان تكون شاملة في مذهبه الادبي بالرغم من جنوحه الى التجديد ولكن هذا التجديد كان ضمن اطار الماضي ويدور داخل فلكه وهذا الأثر جلي من خلال ما يصدر من احكام وأقوال في كتابه العقد الفريد بل ان كتابه هذا لم يكن إلا رغبة ملحة في مناقشة المشارقة وبلوغ شأوهم .

المرحلة الثانية من حياة ابن عبد ربة الاندلسي هي المرحلة التي تؤذن فيها شمس شباب الشاعر بالمغيب وتثقل عليه وطأة السنين لينكفي على نفسه فلا يلبث ان يجنح للحكمة وينعطف الى الزهد شأنه في ذلك الشأن اي انسان ينفتح عن الحياة في ريعان شبابه ثم لا يلبث عندما يدركه الهرم ان يتوارى عن مسرح المباهج هذا ما كان من امر ابن عبد ربه وهذا ما كان من شأن سلفه الشاعر الغزال بعد حياة من المباهج والمسرات بل ما كان اخيرا من شأن ابي نؤاس في المشرق وهكذا راح ابن عبد ربة يقول في نغم شجي:

ألا انما الدنيا غضارة أيكـــــة إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال الا فجـــائع عليها ولا اللذات إلا المصـــــائب

وكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ســاكب

فـلا تكتحل عيناك فيها بعـبرة على ذاهب منـــــها فأنـك ذاهب

ويبدو من الابيات ان الشاعر في تأملاته هذه كأنما يرثي نفسه قبل حين الرثاء وعلى الرغم من مسحة التشاؤم التي تسربلت بها هذه الابيات فأنها لطيفة الوقع على الاذن محببة الى النفس وذلك راجع الى عوامل خفية يوحي بها الى مثل هذا الشعر ولعل من عناصر جمال النص هذا مطلعه الذي يشبه به الشاعر الدنيا بشجرة وهذا التشبيه مفعم بالحياة على الرغم من بساطته وقرب مأخذه وهوة من جهة اخرى مستمد من طبيعة البيئة الاندلسية وربما كان ايضا من اسباب جمالية هذه الابيات ان الشاعر قد استطاع تصوير الدنيا غير المستقرة على حال والحياة المتقلبة والموصوفة بالتحول تصويرا حيا باختياره لمجموعة من الافعال مما يوحي بعنصر الحركة الذي ابتغاه . وجنح ايضا بالإضافة إلى ذلك الى هذه المطابقات التي اقتضتها طبيعة المقارنة بين وجهي الحياة القاتم والمشرق ويؤلف شعر الاداب والأخلاق الاسلامية حيزا مهما في ديوان ابن عبد ربه ويأتي بهذه القصائد في باب الامثال ايضا في كتابه (العقد الفريد) كما في قوله

والحر لايكتفي من نيل مكرمة حتى يروم التي من دونها العطب

سعى به أمل من دونه أجـــل ان كفة رهب يستدعـــــــه رغب

لذاك ماسأل موسى ربه" أرني انظر اليك" وفـــــي تسآله عجب

يبقى التزيد فيما نال من كرم وهو النجي لديه الوصل والطلب

الشاعر هنا اراد ان يذكر حرص الانسان على الاستزادة من الحياة وان يبلغ اعلى المراتب لأنه يحدوه عند سعيه الامل وقد يحول الاجل في كف طموح الشاعر ولكن في احيان كثيرة يبقى متماديا لا يرعوي حتى يقع في المصيبة.

الموضوع الاخر الذي تناوله في شعره والذي يتصل في شعر الاداب الاسلامية ويأخذ حجما واسعا من الديوان هو الشعر الزهدي الذي وصلت الينا منه قصائد كثيرة ذهب فيها ابن عبد

ربه مذهبا جديدا اطلق عليه (الممحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائده التي قالها في حياته الاولى يلتزم فيها الوزن والقافية نفسهما ولكنه يناقض نزعته المتساهلة في باب الغزل وجل ما وصل الينا من هذه القصائد لاتزيد ابياتها على الخمسين بيتا كما في قوله:

ياعاجزاً ليس يعفو حين يقتدر

ولايقضّى له من عيشه وطـــــر

عاين بقلبك ان العين غافلة

عن الحقيقة واعلم أنها سقـــــر

سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت

للظالمين فلا تبقي ولاتـــــذر

إن الذين اشتروا دنيا بآخرة

وشقوة بنعيم ساء ماتجـــــروا

انت المقول له ما قلت مبتدئا

هلا ابتكرت لبين ما كنت مبتكر

لقد اشاد النقاد بشاعرية ابن عبد ربه التي اتسمت بالغزارة في النتاج والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثون انه كان نقطة تحول في الشعر العربي في الاندلس وقد تأثر فيه شعراء اندلسيون كثر ويمكن ابرز سمات شعره على النحو الآتي:

١- انماز شعر ابن عبد ربه بالبديهة في مرحلة شبابه والمقصود بالبديهة السهولة وطابع الخفة والارتجال وربما كان من اثر الارتجال كما يقول(د.احسان عباس) وفرة التيار العاطفي في شعره حتى في اشد الحالات التي يمكن ان تثور فيها العاطفة اما في مرحلة الشيخوخة فقد اقترن شعره بالكد والصنعة وظهر ذلك جليا في مظهره الفني الذي ابتدعه حين عارض اشعاره التي قالها في المرحلة الاولى في مرحلته الثانية وخص الادب الاندلسي بفن طريف

سماه (الممحصات) ومن ابياته المشهورة بهذا الاتجاه قوله :

يامن يضن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا الضـن من أحـد

لو ان أسماع أهل الارض قاطبة

أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يـزد

لولا اتقائي شهابا منك يحرقني

بنـاره لأسترقت السمـــــــــع من بعد

٢ –عدم التزامه اتجاها واحدا فهو محافظ حينا مجددا حينا اخر كما يراه (د.احمد هيكل) مع امتياز شعره بالبساطة والغنائية حيث غلب الجانب الموسيقي والعنصر العاطفي

٣– ما يتصل بلغة الشاعر:شيوع الالفاظ ذات الدلالات الموحية بالجمال في مراحله المبكرة ثم كثرت الالفاظ القرآنية والمصطلحات الفقهية ويبدو اثر الاقتباس القرآني واضحا في شعره كما في قوله:–

ما انتم شيء ولا علمكم قد ضعف المطلوب والطالب

تغالبون الله في حكمه والله لايغلبـــــــــه غالب

ففيه اقتباس من قوله تعالى (ضعف الطالب والمطلوب) وقوله(والله غالب على امره)يوسف/٢١

والملاحظ ان ابن عبد ربه يجري في الاتجاه العام الذي جرى عليه الشعراء الاندلسيون في مجال الاقتباس اذ تأتي اقتباساتهم غير مباشرة على وفق رأي المالكيه في كراهة الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر وهذا الكلام لا يبدو دقيقا لما صادفنا من اقتباسات تبدو مباشرة كما في قوله:

لذاك ما سأل موسى ربه أرني أنظر اليك وفي تساله عجب

وهناك سمة لا بد من التنويه بها وهو ما يتصل بثقافته تبدو هذه السمة في تعلقه في الثقافة المشرقية وموروثها الضخم فهو تارة يورد اشعار القدماء في كتابه(العقد الفريد) وفي صورة اخرى يكون معارضا لشعره كما رأينا في معارضته للامية (صريح الغواني) وليست(ممحصاته) إلا

استمرارا لروح المعارضة التي سيطرت عليه فعلى رأي احد الدارسين يقول(فهو حين شبع من معارضة المشارقة عارض نفسه) .

المصادر والمراجع :

- الادب الاندلسي : د. منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب والوثائق – الموصل ، ١٩٨٦.
- الادب الاندلسي : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ١٩٨٨.
- تاريخ الاندلس : د. عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم – دمشق ، ١٩٩٠ .
- دواوين الشعراء الأندلسيين :
  - ديوان ابن زيدون .
  - ديوان الاعمى التطيلي .
  - ديوان ابن اللبانة .
  - ديوان المعتمد بن عباد .
  - ديوان ابن الجنان الانصاري.
  - ديوان ابن خفاجة .
  - ديوان ابي البقاء الرندي .
  - ديوان ابن دراج القسطلي .
  - ديوان ابن عمار الاندلسي .
- كتب الأدب الاندلسي ومختاراته :
  - مطمح الانفس ، لابن خاقان .
  - قلائد العقيان ، لابن خاقان .
  - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام .
  - الاحاطة في اخبار غرناطة ، للسان بن الدين الخطيب.
  - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، للمقري التلمساني .